قد تكون إيحاءات الأبيض و الاسود، أو العوامل التى تركها الزمن عليها أو الأجواء التى تغلفها إلا أن صور أرشيف الينارى التى يحتويها هذا الكتالوج تنبعث منها رائحة نفاذة هى رائحة المنازل أو عبق البيوت. هذه الاماكن تغطى كل ركن من أركان البحر المتوسط غير إنها تبدو جميعها متشابهة و تذكرنا ببساطة وبعفوية بفكرة "المار نوستروم" (الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على البحر المتوسط عندما كانوا يحتلون بلاد الحوض وكان حينئذ يسمى ب "البحيرة الرومانية").

و من الملفت للنظر فعلاً إن مائة عام، بل اقل، كانت كافية، لكي نقتفى الآثار العميقة لنقاط الالتقاء التى تربط بين ناس و بلاد تعتبر اليوم شديدة الاختلاف عن بعضها البعض و يكفى ان نستبعد مظاهر الحداثة البارزة : ناطحات السحاب، الطرق الكبرى، السيارات ، لوحات الاعلانات، اى كل ما يشير الى زمننا الحديث و لهويتنا الأليمة لنر كيف أن الأرض و الأحجار و السماوات و البحار تنادى بعضها البعض و هى تتكلم نفس اللغة. و تبدو الوجوه والعيون ايضا بمظهرها العفوى تنضم إلينا كما لو كانت تأتى من ركن في الشارع و تتجمع كلها بالرغم من اختلاف اصولها.

نشاهد صورة لمدينة رودس كما لو كنا فى اسطنبول, باليرمو و نيس تبدوان شديدتان التقارب و كاستل ديلأوفو فى نابولى يمكن ان نجدها بالقرب من قلعة سانت انجيلو بمالطا. و لو لم تكن أثينا قد عانت حصاراً بجزئها الحديث لكانت بقايا البارثيون أتسمت بنفس السحر الصامت الذى نجده فى بترا فى الاردن او فى بالميرا فى سوريا. ان بلاط قصر فى بيروت وآخر فى دمشق يبدوان هنا متلاصقان ومتشابهان و عندما نعبر مدخل باب العمود فى القدس يمكننا أن نجد أنفسنا، و كأن شيئاً لم يكن، فى شارع صغير فى الجزائر العاصمة.

هذا ما تنقله الى حواسنا هذه الصور حتى وإن كان العقل الذى يدرك جيدا بخبرة التاريخ أن الوضع غالباً ما يكون مختلفاً.

و مع ذلك فكلما اقتربنا من الجذور كلما اقتنعنا أن اوروبا والعالم العربى والعالم اليهودى والبلقان قد مروا بأوقات لم تكن فيها الانقسامات و العداوات قدر لا مفر منه. و هذا ما يجعلنا نعتقد اليوم ان ذلك ليس مستبعداً اليوم.

ولسنا فى معرض الإشارة إلى العبارة البلاغية المستهلكة التى تصف البحر المتوسط "بمهد الحضارات". فقد كانت غير حقيقية إنه فى زمننا التعس لم يعد المهد قادراً على حمايتنا من الجنون و العنف. يجب علينا بالأحرى أن نعيد اكتشاف الرغبة فى المعرفة، فى المواجهة و فى الاحترام وهي الأسس التى كانت فى حقبة من التاريخ تقارب بين شواطئ هذا البحر. قطعاً لم تكن تلك الشواطئ مسالمة فطالتها حروب و عداوات و دم و تهجير كانت الوجه الآخر للبحيرة الرومانية. ولكن كانت هناك شبكة من الاتصالات و التجارة والمواصلات والمسافرين أو مجرد سائحين لم تتوقف عن الوجود على مر الأزمان ولم تفرق قط بين الأجناس أو الأديان أو الأعلام. كانت شبكة تامة، إذا جاز التعبير، من رحيق الحياة.

تلك الحياة هى التى ترصدها بعبقرية روائع التصوير الفوتوغرافي التى يحتويها هذا الكتالوج. فعند تصفحه يترك لدينا انطباع بأننا نتصفح بين ايدينا البوم عائلى وكما يحدث فى كل العائلات خاصة العريقة والكبيرة منها لابد من وقت لآخر من التزاور من التصالح و من أجل تبادل الذكريات ومن أجل تعلم الاقتراب من بعضها البعض. من أجل ذلك، من أجل الذكريات والتعارف والاقتراب تنظم " أنسامد " بالتعاون مع مجلس الشيوخ الايطالى هذا المعرض.

مارشيلو بيرا
رئيس مجلس الشيوخ الايطالى